ظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل

د. ماهر أحمد المبيضين *

E.mail: maher_mobideen@yahoo.com

* قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة مؤتة - الأردن

ظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل

د. ماهر أحمد المبيضين

الملخص:

يتناول هذا البحث ظاهرة بكاء الماضي في شعر بن مقبل، أحد الشعراء المخضرمين والمُعَمَّرين، حيث عُمِّر مئة وعشرين سنة.

وقد تبين أن ظاهرة البكاء في شعره تعود لظروف اجتماعية ونفسية ودينية خاصة بالشاعر، منها ما يتعلق بحياته الرغدة في الجاهلية وتحسره على انقضاء أيامه فيها ثم ما حصل في الإسلام من تفريق بينه وبين زوجه (دهماء) التي ظل يحنُّ إليها حتى في شيخوخته.

وتبين أن ظاهرة البكاء عند الشاعر تجسدت في حديثه عن الشباب والشيب، والمرأة والطلل، والخمر ومجالس الشراب، والدهر ومصائبه.

مصطلحات أساسية: ظاهرة البكاء، شعر، ابن مقبل، الشعراء المخضرمين.

Nostalgic Grief in the Poetry of Ibn Muqbil

Dr. Maher Mobideen

Abstract:

This study focuses on the feeling of nostalgic grief in the poetry of Ibn Muqbil, a poet who lived 120 years in the Jahiliah and Islam eras. The study shows that this feeling was present in the poetry of Ibin Muqbil as a result of some social, religious, and psychological circumstances. Among these are his luxurious life and absolute freedom in the Jahiliah era and the parting between him and his wife, Dahma, in the Islam era.

The poet's nostalgic grief is embodied in his verses about the youth and the old age, the woman as a wife and a beloved, the ruins, the wine, the merry-making parties, and the old days along with the calamities brought about with the passage of time.

Keywords: Nostalgic Greif, Poetry, Ibn Muqbil, Jahiliah and Islam eras.

المقدمة:

لم يكن من السهل على الشاعر الجاهلي الذي عاش شطرًا من حياته في الجاهلية وأدرك الإسلام، أن ينسى تلك الأيام التي عاشها في جاهليته، أو أن يتحرر بسهولة ويسر من عاداته وتقاليده، وأنماط حياته السابقة، وبخاصة إن كانت تلك الأنماط والسلوكيات نابعة من أعماق النفس، ومن فكر تَشَرَّب عادات عصر وتقاليده، هذا إذا ما عرفنا أن الإسلام قد قيَّد الشعراء والزمهم بمضامين يصعب الخروج عليها.

من هنا جاءت هذه الدراسة لتتناول ظاهرة من الظواهر البارزة في شعر تميم ابن أبي بن مقبل، تتمثل في بكاء الماضي في شعره، فابن مقبل من الشعراء المخضرمين والمعمرين، حيث عاش مئة وعشرين سنة، وظاهرة بكاء الماضي في شعره غريبة على حد ما أشار محقق ديوانه عِزَّة حسن، إذ لا تكاد توجد عند غيره من الشعراء المخضرمين، ولهذه الظاهرة أسباب سيُشار إليها في موضعها من هذه الدراسة.

ومما يجدر ذكره أن هذه الدراسة اعتمدت على ديوان ابن مقبل بتحقيق عِزَّة حسن، لاستقراء النماذج الشعرية التي تُبرز هذه الظاهرة بشكل جلي، حيث دُرست الظاهرة وفق العنوانات الآتية التي من خلالها بكى الشاعر ماضيه وتحسَّر على زواله:

أولًا: حياته في الإسلام وأثرها في نشوء الظاهرة

ثانيًا: الشباب والشيب

ثالثًا: المرأة زوجة وحبيبة

رابعًا: الطلل

خامسًا: الخمر ومجلس الشراب

سادسًا: الدهر

وتحقيقًا للأمانة العلمية والإشادة بجهد الباحثين ينبغي الإشارة إلى دراسة علمية جادة ومميزة لشعر ابن مقبل، وهي دراسة الباحث الدكتور عبدالله الفيفي بعنوان: «شعر ابن مقبل: قلق الخضرمة بين الجاهلي والإسلامي دراسة تحليلية نقدية»، وهي في الأصل رسالة ماجستير في جامعة الملك سعود بالرياض، ثم نُشِرَت في طبعتها الأولى عام 1999، والذي يعنينا هنا أنَّ دراستنا لظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل قد أفادت من دراسة الفيفي، حيث أضاء لنا الطريق لإضافة ما يمكن إضافته.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الدراسة محاولة للكشف عن ظاهرة بكاء الماضي التي برزت بشكل واضح في شعر ابن مقبل، وتوضيح أبعادها، والوقوف عند معللاتها، في ضوء دراسة ما يتعلق بحياة الشاعر الاجتماعية، ولهذا فإننا أقرب ما نسير فيها وفق المنهجين الاجتماعي والنفسي، لتفسير أسباب نشوء الظاهرة، وقد اعُتمِد في ذلك على بعض الدراسات النفسية والاجتماعية، ثم تحليل النصوص الشعرية لاستخلاص المضامين التي تتفق وجزئيات البحث، وتجدر الإشارة إلى أننا حدَّدنا القصائد التي قالها الشاعر بعد دخوله في الإسلام بناء على ما ورد فيها من إشارات تاريخية، أو ما جاء فيها من ذكر لشخصيات إسلامية، وهي على هذا النحو قصائد إسلامية واضحة، وهناك قصائد أخرى رجَّحنا أنه قالها بعد دخوله في الإسلام لورود بعض الألفاظ

والعبارات والمعاني الإسلامية فيها، وقد اعتُمِد في ذلك أيضًا على دراسة الفيفي في تحديد القصائد الإسلامية.

أولًا: حياته وأثرها في نشوء الظاهرة

1. اسمه ونسبه:

هو تميم بن أُبيّ بن مقبل بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان بن عبدالله ابن ربيعة بن كعب بن عامر بن صعصعة[1].

وكان تميم جاهليًا إسلاميًا[2]، وكان يُكنَّى بأبي كعب[3]، وأشار الصفدي إلى أن ابن مقبل كان أعور جافيًا في الدين[4]، ويبدو أن ابن مقبل كان من المعدودين المشهورين في بني العجلان، ففي حديث ابن حزم عن بني العجلان ذكر أنهم قبيلة ضخمة، وذكر منهم تميم بن مقبل[5]، ومن الملاحظ أن هناك اختلافًا في اسمه[6]، لكنّ شهرته الغالبة ابن مقبل، حيث تُقَدِّم كثير من المصادر ابن مقبل على اسمه المعروف بتميم بن أُبي بن مقبل[7].

وتُجمِع المصادر على أن ابن مقبل قد عُمِّرَ طويلًا، حيث عاش مئة وعشرين سنة، وتوفي سنة 70هـ[8]، بمعنى أنه عاش جزءًا كبيرًا من حياته في الإسلام، فقد رثى الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في شعره حيث قال[9]:

لِيَبْكِ بَنُو عُثْمانَ ما دام جِذْمُهُمْ
عَليه بأصْلالٍ تُعْرَى وتُخْشَبُ
نَعاءِ لِفَضْلِ الحِلْمِ والحَزْمِ والنَّدَى
ومَأوَى اليَتَامى الغُبْرِ عَامُوا وأجْدَبُوا

وقد أدرج ابن حجر العسقلاني اسمه تحت عنوان: (فيمن أدرك النبي (ص) ولم يره)[10].

2. حياته في الإسلام وأثرها في بكاء الماضي:

أمضى ابن مقبل شطرًا طويلًا من عمره في الجاهلية، تأثر ببيئتها، ونهل من أفكارها ومعتقداتها، وعاش أجمل أيامه فيها، ثم أدرك الإسلام في سن متأخرة من عمره، وهذا يعني أنه كان حتى بعد إسلامه شديدَ التعلق بحياته الأولى في الجاهلية بكل ملذاتها لأنها تمثل ماضيه ، فقد كان شديد الارتباط برهطه وقبيلته، ولمَّا كانت حياته في الجاهلية لا تَحدُّ من حريته، وانغماسه بالملذات، وحضور المجالس التي تروق له، فقد جعله هذا الأمر شديد التعلق بذكرى أيامه السالفة قبل إسلامه، إذ إن الإسلام بفكره الجديد ومعتقداته، وطبيعة الحياة الجديدة فيه، قد كان نقطة تحول في حياة الشاعر، بل جعل هناك حاجزًا بينه وبين ماضيه ، وهذه انتقالة مفاجئة بعد عهد مضى بذكرياته الجميلة بالنسبة إلى الشاعر، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن مقبل لم يكن مستاءً من الإسلام، غير راضٍ به متمردًا عليه ، بل هو تذمّر واستنكار من ظروفٍ اجتماعية ونفسية مّر بها في عهده الجديد، ولا شك في أن هذا السبب كان كفيلًا بأن يجعل ابن مقبل شديد التعلق بأيامه في الجاهلية يَحنُّ إليها، بل وصل الأمر إلى بكاء كل ما من شأنه أن يذكره بما مضى[11]، ولعل الواقع الجديد قد صرف الشاعر إلى العزلة النفسية أو ما يعرف بالاغتراب النفسي، فهناك بُعْدٌ شاسع بينه وبين أيامه السالفة ، لذا بقي بعد إسلامه يعتصر ألمًا ويحسُّ بالغربة، فأخذ يتذكر ماضيه دون تردد أو خجل من ذكر ما حَرَّمَه الإسلام من فكر الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، وما هذا إلا لأن الشاعر قد

أدرك أن هذا الحاضر يتناقض وقيم حياته السابقة التي تُعَدُّ حاضرة في ذهنه لا تفارقه، لأنها في نظره الأقرب إلى وجدانه، مما قاده إلى صراع نفسي يَشدُّه إلى الماضي الذي تثبَّت في أعماق نفسه ووجدانه، لن يطمس أثرها دخوله في الإسلام، فرافق هذا الشعور إحساس بالأرق والاكتئاب، والاغتراب، كل ذلك عائد إلى فقدان ملذات الحياة السابقة التي ما تزال حاضرة، ففؤاده متعلق بالماضي حتى انبعثت زفرات الحنين إلى الذكريات، وهذا على حد تعبير أبي حيان التوحيدي: «وما ذاك إلا لسرٍّ للنفس، الإنسان غير شاعرٍ به ولا واجد له «[12].

والاغتراب الذي أشرنا إليه عند ابن مقبل ليس سببه البعد عن المكان، وإنما البعد عما الفه في ذلك المكان والزمان، وهذا كما يشير ماهر حسن فهمي فيه تبلور للشعور العاطفي[13].

ويمكن تبيُّن هذا الاغتراب عند ابن مقبل في تناولنا للجزئيات اللاحقة من خلال الوقوف عند النماذج الشعرية التي توضح طبيعة هذا الاغتراب.

والسبب الآخر الذي يُعزى إلى بكاء ابن مقبل لماضيه وحنينه إليه، يتعلق بالمرأة الحبيبة والزوجة، فقد فرَّق الإسلام بينه وبين زوجه (دهماء) التي ذكرها كثيرًا في شعره، وهي الزوجة التي ورث نكاحها عن أبيه، وكان ذلك في الجاهلية، وهذا ما يحرُم شرعًا في الإسلام، فقد أوردت المصادر أن الإسلام قد فرَّق بين هؤلاء الذين تزوجوا من زوجات آبائهم وزوجاتهن: «ومنهم تميم بن أبي ابن مقبل، وكانت تحته دهماء إمرأة أبيه، ففرق بينهما الإسلام»[14].

وقد شاع عند الجاهلية هذا النوع من الزواج، وهو ما يُسمى بنكاح الضَّيزن: «وهو ما يسميه المسلمون نكاح المقت، ذلك أنه في الجاهلية كانت إحداهُنَّ إذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها، إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يُزوِّجها حتى تموت، وظل هذا شأنهم إلى أن نزل الوحي بتحريم ذلك، وقد تناوب ثلاثة من بني قيس بن ثعلبة امرأة أبيهم فعيَّرهم أوس ابن حجر التميمي بذلك...»[15].

وقد جاء تحريم هذا النوع من الزواج في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا﴾[16]، ولمَّا كانت دهماء قريبة إلى نفس الشاعر ومُحببة إلى قلبه، ظلَّ يبكي أيامه معها في الجاهلية، إذ ورد ذكرها في ديوانه ثلاثًا وعشرين مرة، وفي ذلك يقول عبدالله الفيفي في إشارته إلى تعلق ابن مقبل بها: «ولو ذهب القارئ يقارن بين زوجتي (ابن مقبل) هاتين: دهماء وسُليمى، ليعرف أيهما أكثر قربًا لنفسه، لوجد نتيجة استقراء الديوان، وإحصاء عدد المرات التي ذكر فيها كل واحدة فيهما، تشير إلى فرق شاسع بينهما، فبينما أتت (سُليمى) في ديوانه (ثلاث مرات) فقط، فإن (دهماء) قد جاءت (ثلاثًا وعشرين مرة، هذا غير المرات التي كان يُكنِّي عنها ولا يُصرِّح باسمها»[17].

وأذهب هنا إلى ما ذهب إليه الباحث من أن السبب في ذلك عائد إلى شدة تعلقه بها: «غير أن ما يبرز في تفوق (دهماء) على (سليمى) ليس عدد المرات التي ذُكِرت فيها فحسب، بل حرارة العاطفة التي تصاحب ذلك الذكر أيضًا، ولا شك أن عامل

السِّن له دوره في هذا التفوق»[18].

ولذا يَكثُر في شعر ابن مقبل ما يشير إلى تحسره على أيامه الفائتة مع (دهماء)، وهذا كان له أثره الواضح في بكائه الماضي، بمعنى أن دهماء تمثل ماضي الشاعر الجميل، وله قول يمكن للقارئ أن يستنتج منه تأثره بسبب تفريق الإسلام بينه وبين زوجه، حيث يقول[19]:

هَلْ عَاشِقُ نَالَ مِن دَهْمَاءَ حاجَتَهُ
في الجَاهِلِيّةِ قَبلَ الدِّينِ مرْحُوم

ويشير عبدالله الفيفي إلى أن كلمة (مرحوم) قد تكون بالجيم (مَرجوم)[20].

فإن كان ابن مقبل صادقًا في قوله منطلقًا من الإسلام، فإنه لا يعترض على تفريق الإسلام بينه وبين زوجه دهماء، فيرجو الرحمة والمغفرة من الله، فعندها تكون الكلمة (مرحوم)، أما إذا لم يكن كذلك، فإنه يصف حاله وواقعه المتحسر والمتالم والمتأثر ببُعد دهماء عنه، أي كانت الكلمة (مرجوم)، فكأني به يَردّ على حال السائل: هل يُعدَّ مثل ابن مقبل زانيًا بفعلته، (أي زواجه من زوجة أبيه) فيستحق الرجم، والجواب الإسلام يَجبُّ ما قبله.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الأمر إضافة إلى ما سلف يُعدُّ سببًا في شيوع ظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل، وسيشار إلى أثر ذلك في إحدى جزئيات البحث اللاحقة بإذن الله.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن القدماء قد تنبهوا إلى شيوع هذه الظاهرة في شعر ابن مقبل، فبعض من ترجم للشاعر ذكروا هذه الصفة، كما نجد في ترجمة الصفدي لابن مقبل حيث قال: «وكان أعور جافيًا في الدين، أدرك الإسلام، وأسلم وكان يبكي أهل الجاهلية»[21].

وكذلك في ترجمة البغدادي له: «...شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وكان يبكي أهل الجاهلية وبلغ مئة وعشرين سنة»[22]، وبكاء الجاهلية وأهلها يعني الماضي لابن مقبل.

إن انتقال الشاعر من زمن مليء بالذكريات الجميلة إلى زمن يشعره بالضعف جعله في هذا الموقف النفسي الصعب، وكان لهذا كله أثره الواضح في شعره، ولعل ما حدث مع ابن مقبل يمكن أن يكون شبيهًا بحال من عاش في مجتمعين متناقضين، مجتمع البادية ومجتمع المدينة على سبيل المثال، لاختلاف كبير بين المجتمعين في العادات والتقاليد والأفكار والقيم، وبالتالي يشعر الإنسان بالاغتراب في المجتمع الجديد، لأنه سيواجه صراعًا مع هذا الواقع الطارئ، وهو ما يمكن التعبير عنه بالقول: «أثر الوضع الحضاري في تطور الإحساس بالغربة ومفاهيمها»[23]، أو ما يعرف في الدراسات النفسية بعدم التجانس [24].

وما حصل مع ابن مقبل يمكن أن نردَّه إلى ما يُعرف في الدراسات الحديثة بعدم التكيُّف الذي يقود إلى العزلة، لأن هناك انعدامًا في التوافق: «ويرى بعض الباحثين أن في ذلك نوعًا من الانفصال عن المجتمع وثقافته»[25].

بمعنى أن ابن مقبل تأذَّى كثيرًا لبعده عن أيامه السابقة بكل ما فيها، حتى كاد يصل إلى ضآلة الدفئ العاطفي، أي أن نظريات الاغتراب فسَّرت

مثل هذا الشعور، حيث وُجدت بعض المفاهيم التي تشير إلى حالة من عدم الاستقرار تصيب الإنسان عندما ينتقل من واقع إلى واقع آخر مختلف تمامًا، يقول محمد الشوابكة في معرض تعليقه على مصطلح الأنومي الذي يدل على تحلل المعايير:»ويرتبط هذا المفهوم بما يطرأ على المجتمع من تغيرات حادة تبرز من خلالها معايير جديدة مفاجئة لا يستطيع أفراد المجتمع الاستجابة لها، فتصبح هذه المعايير عاجزة عن السيطرة»[26].

وتشير الدراسات النفسية إلى وجود مظاهر انفعالية لعقدة الشيخوخة منها: «الاعتقاد بأن كل ما كان بالماضي أفضل مما هو في الوقت الحاضر، فيقف الشيخ موقف المعجب بماضيه، حيث يكون توجيه عاطفته إلى المراحل الأول من عمره الذي يُعد بمثابة اعتزاز لهذه المراحل التي كان فيها فتيًا قويًا شابًا متقدمًا »[27].

ولعل فيما سلف ما يُفسر وجود ظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل، والتي يمكن أن تبرز بشكل واضح في النماذج الشعرية التي سيتم دراستها في هذا البحث، مع الإشارة إلى أنّ ابن مقبل لم يقف موقفًا سلبيًا من الإسلام، ولا يمكن عَدَّ ما أشرنا إليه أنه نادم على دخوله في الإسلام.

ثانيًا: الشباب والشيب:

دائمًا ما يلجأ الشاعر إلى الماضي ليأخذ منه مادةً لتأملاته في الحياة، ووسيلة لافتة للتعبير عن الرغبات والآمال، وتكون منطلقًا نحو التفكير في المستقبل.

وعندما تتقدم السنون بالإنسان ويصل إلى ما يُعرف بمرحلة الشيخوخة، يجد نفسه أمام حالة شعورية تُلجئه إلى جو مليء بالآلام والأحزان، لأن هذه المرحلة نذير شؤم، وإحساس بمرور الزمن والقرب من الموت، وطالما شغلت هذه المسألة هاجس الإنسان العربي في العصر الجاهلي، هاجس الخوف من الفناء والحرص على البقاء، ولهذا لا نستغرب شكوى الشعراء المستمرة من الشيب وبكاء أيام الصبا التي تحمل في جعبتها أجمل أيامهم وسعادتهم، فقد عبر قيس بن عاصم عن دلالة الشيب على دنو الأجل بقوله: «الشيب خطام المنية»[28].

أما ابن مقبل فإن في أيام شبابه التي أمضى معظمها في الجاهلية ما يُذكِّره بكل ما هو جميل، سواءً ما كان يتعلق بعلاقاته الاجتماعية مع الأصدقاء، ووضعه في مجتمع القبيلة، أم في علاقاته العاطفية، وهي عوامل كانت دافعًا لكل هذا البكاء: «فإن عوامل عديدة جعلت (ابن مقبل) أشد تحرقًا على تلك الأيام، ولعل أهمها: تعميره، حتى بلغ مئة وعشرين سنة، وكفُّ بصره في آخر حياته، وحب دهماء الذي لم يُقدّر له الشفاء منه بالرغم من تقدمه في السن، مع عدم رضا عام كان يسيطر عليه في العهد الإسلامي»[29].

وغالبًا ما كان الحديث عن الشباب والشيب يأتي عند حديث الشاعر عن المقدمة الطللية، وذكر الشاعر للمرأة، ولعلنا نجد لذلك تفسيرًا، حيث يمكن أن يعزى ذلك إلى أن الشعراء رأوا في مجيء الشيب سببًا في نفور المرأة منهم وبخاصة الحبيبة، فيتملَّك الشاعر حينئذ شعور بالمأساة؛ لأنه عند هذه اللحظة قد افتقد اللذة بفقده لأيام شبابه، يقول ابن مقبل[30]:

طَرَقتكَ زَينبُ بَعدما طالَ الكرَى
دُونَ المَدينة، غَيرَ ذي أَصْحاب
إلا عِلافيًّا، وسَيفًا مُلْطَفًا
وضَبرَّةً وَجْناءَ ذاتَ هبَاب[31]
طَرَقتْ وقَدْ شَحَطَ الفُؤادُ عَن الصِّبَا
وأتى المَشيبُ فَحال دون شَباب

ولعل الشاعر في بكائه حاله الراهنة يبكي حياته وذكرياته في الجاهلية، لأنها الأكثر متعة وقوة، فيتصاعد الالم عندما يجد من يهزأ به لحالته التي آل إليها، وهذا ما حصل مع ابن مقبل في الخبر الذي يرويه ابن قتيبة ونصه: «وكان خرج في بعض أسفاره، فمر بمنزل عصر العقيلي، وقد جهده العطش، فاستسقى، فخرج إليه ابنتاه بعُسٍّ (فيه لبن)، فرأتاه أعور كبيرًا، فأبدتا له بعض الجفوة، وذكرتا هرمه وعوره، فغضب وجاز ولم يشرب، وبلغ أباهما الخبر، فتبعه ليرده فلم يرجع، فقال له: ارجع ولك أعجبهما إليك، فرجع وقال قصيدته هذه وهي أجود شعره»[32].

وهي القصيدة التي تتجسد فيها ذكريات الماضي وبكاء الحاضر، والتحسر على أيام خلت، شاهدة في ماضيها على أيام صباه، يقول[33]:

يَا حُرَّ أَمسيتُ شيخًا قدَ وهىَ بصري
والْتاثَ ما دُونَ يَوم الوَعد مِن عُمْري
يَا حُرَّ مَنْ يَعتذرْ مِنْ أَنْ يُلِمَّ بِه
رَيْبُ الزَّمان فَإنِّي غَيرُ مُعْتَذِر
يَا حُرّ أمسَى سَوادُ الرَّأس خَالَطَهُ
شَيبُ القَذال اخْتلاطَ الصَّفو بالكَدَر
يَا حُرَّ أمسَتْ تَليّاتُ الصِّبا ذَهبتْ
فَلسْتُ مِنها عَلى عَينٍ ولا أثَرِ

إن حديث الشاعر عن موقفه الراهن، يصور حنينه لأيام الماضي، لأنه عندما صار شيخًا فإنه أصبح غير قادر على ممارسة حياة اللهو والغزل، فلم تبق فيه بقية لاستمرارية حياة اللهو التي شهدها في صباه أيام الجاهلية، وهو حريص على تأكيد هذا المعنى، لهذا لجأ إلى أسلوب التكرار، تكرار أداة النداء والمنادى، ويؤدي التكرار هنا وظيفة لها علاقة بنفسية الشاعر وتحسره على أيام ماضيه، وهذه الوظيفة تكمن في حرص الشاعر على لفت انتباه السامع لما يقول[34].

وتظهر في هذه القصيدة ثُنائَّية الشباب والشيب بأسلوب قائم على المراوحة بين الحديث عن الماضي بتحسر والم وبكاء على انقضائه، وحديث مرير عن الواقع الحاضر بالم وشعور بالاغتراب، لا يملك الشاعر إزاءه إلا تعزية نفسه في محاولة منه لتخفيف وطأة الشيب وتقدم السن عن نفسه، ولا يتأتَّى له ذلك إلا بالالتفات إلى الماضي، حيث الشباب والقوة والصبر، يقول[35]:

قَدْ كُنتُ أَهدي ولا أُهدَى، فَعلَّمني
حُسْنَ المَقَادة أنّي فَاتَني بَصَري
كَانَ الشَّبابُ لحاجَات وكُنَّ لَهُ
فَقد فَرَغْتُ إلى حَاجاتيَ الأُخَرِ
رَامَيتُ شَيْبي كلانا قَائمٌ حجَجًا
ستّين، ثُمَّ ارْتمينا أَقربَ الفُقَرِ
رامَيْتهُ مُنذَ رَاعَ الشَّيبُ فَاليتي
ومِثْلُهُ قَبلهُ مع سَالف العُمُر
أَرْمي النُّحُورَ فَأُشْويها وتَثْلمُني
ثَلْمَ الإناء فَأَغْدُو غَيرَ مُنْتصِرِ

فِي الظَّهرِ والرَّأسِ حتَّى يَسْتَمرَّ به
قَصْرُ الهِجَارِ وفِي السَّاقَينِ كَالفَتَرِ

ويُظهِر الشاعر حكمته عند حديثه عن الشيب والشباب، وذلك عندما يتورع عن الرد على ابنتي (عصر)، فالحياء والدين يمنعانه من ذكر عيوبهما، يقول[36]:

قَالتْ سُليمى بِبَطنِ القَاعِ من سُرُحٍ
لا خَيرَ فِي العَيشِ بَعدَ الشَّيبِ والكِبرِ[37]
واسْتَهزأَت تِرْبُها منِّي فَقلتُ لها:
مَاذا تَعيبانِ منّي يا بْنتَي عَصَرٍ؟
لولا الحَياءُ ولولا الدِّينُ عِبتُكُما
بِبَعضِ مَا فِيكُما إذْ عِبْتُما عَوَري

ويظهر في البيت الأخير الحديث عن القيم الاجتماعية والقيم الدينية كضوابط للسلوك الإنساني، وهذا يؤكد أن نظرته إلى الدين مستمدة من نظرته الجاهلية للقيم الاجتماعية الجاهلية، ولمَّا تبلغ درجة القدسية والتميز، وكأننا نلمح من ذلك أن بكاءه على الشباب فيه مقارنة بين زمنين يعنيان مرحلة زمنية ولا يعنيان مرحلة اجتماعية، كما نلمح في البيت الأخير احترامًا للدين الجديد وتقديرًا له.

وما دام الشيب يرتبط بفناء الدنيا وقرب انتهاء الآجل بالنسبة للشاعر فإنه يتحدث عن الماضي ويبكي تلك الأيام التي كان فيها قويًا وشجاعًا، وهذه الثنائية تبرز في شعره، فيأتي الحديث أولًا عن الوضع الراهن بما فيه من مرارة، فقد تغير لون شعر الرأس الذي خالطه البياض، وانحنى الظهر، وأصبح قاصرًا عن ممارسة أي شيء كان يقوم به في شبابه، ثم تأتي الصورة المناقضة التي تتمثل في الحديث عن الماضي الجميل، ويتطلب الماضي هنا الحديث عن القوة والشجاعة، والقدرة على التغير، هذا ما يبدو في قوله[38]:

فإمَّا تَرَيْني قَدْ أَطاعتْ جَنيبتي
وأَصْبحتُ شَيخًا أقصَرَ اليومَ بَاطِلي
وقَدَّمتُ قُدَّامي العَصَا أَهْتَدي بها
فَقدْ كُنتُ أُحْذي النَّابَ بالسيَّفِ ضَرْبَةً
وَأَزجُرُ فِيها قَبلَ تَمِّ ضَحَائِها
وَخُيِّط رَأْسِي بَعد ما كَان أَوْفَرا
وأَدَيْتُ رَيْعانَ الصِّبَا المُتعوَّرا
وأَصبحَ كَرِّي للصَّبابةِ أَعْسرا
فَأُبقي ثَلاثًا والوَظيفَ المُكَعْبرا[39]
مَنيحَ القِداحِ والصَّريعَ المُجبرّا

وعندما يبكي الشاعر بحرقة على انقضاء أيام الشباب التي قضاها في الجاهلية، يالم لفقده الأعوان والأصحاب، ويتحسر على ذلك، مُظهرًا الجزع من المشيب، لأنه يُذكِّره بالوحدة، ويُهيِّج وجدانه ومشاعره، يقول[40]:

أَلهفِي على عِزٍّ عَزيزٍ وظَهْرةٍ
وظِلِّ شَبابٍ كُنتُ فيهِ فَأَدْبَرا

وأحيانًا يربط الشاعر حديثه عن الشباب وبكاءه أيام شبابه بذكريات تعود به إلى كل ما له علاقة بالشباب والفتوة وحياة اللهو، وهي التي حَّرمها الإسلام في هذه المرحلة الانتقالية التي حَلَّ بها، ومن ذلك تذكره لشرب الخمر حيث يقول[41]:

بَلْ ما تَذكَّرُ مِنْ كأسٍ شَرِبتَ بها
قَدْ علا الرَّأسَ مِنكَ والشَّيبُ والصَّلَعُ

وفي بكاء الشاعر شبابه الذي انقضى في الجاهلية، وشكواه المريرة من الشيب، يذكر زوجه دهماء، لكنه يكتشف أن لا جدوى من حنينه وشكواه وقد شاب رأسه وأصبح شيخًا غير قادر على القيام بأعباء نفسه، ولعل هذا يزيد من لوعة الشاعر وتحسره، فيدفعه ذلك إلى بكاء أيام صباه في الجاهلية يبدو هذا في قوله[42]:

أناظِرُ الوَصْلُ أمْ غادٍ فَمصْرومُ
أمْ كُلُّ دَيْنِكَ مِنْ دَهْماءَ مَغْرومُ
أمْ ما تَذكَّرُ مِنْ دهماءَ إذْ طَلعتْ
نَجْدَيْ مَريعٍ، وَقَد شابَ المَقاديم

ويصل الشاعر في نهاية المطاف إلى حقيقة مرة وموقف لا يُحسد عليه، عندما يبكي حاله التي آل إليها، ويعترف بأن الشيب لم يُتح له مجالاً للتكبر والخيلاء، وذلك إذ يقول[43]:

لا تَقولَنَّ زَهْوًا ما تُخَبِّرني
لم يَتْرُكِ الشَّيبُ لي زَهوًا ولا الكِبرُ

وفي موقف آخر يَردُّ الشاعر على من تنكَّرت له وكرهت شيبه وكبر سنه، وهنا تبدو حكمته عندما يقدر أن هذا الأمر بيد الله عز وجل، ثم يحاول أن يُعزي النفس بالرضا بالشيب، وكأنه هنا يُفضِّله على الشباب، فشيبه ليس لكبر سنه وإنما يعزى إلى مقارعته لنوائب الدهر، يقول [44]:

وتَنكَّرتْ شَيبي، فَقلتُ لها:
ليسَ المَشيبُ بناقِصٍ عُمْري
سِيَّانِ شَيبي والشَّبابُ إذا
ما كُنتُ مِن أجلي على قَدْرِ
ما شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ، ولكنِّي امرؤٌ
قارَعْتُ حَدَّ نواجِذِ الدَّهرِ
فَرأيتُها عُصْلا مُوَقَّحَةً
عَزَّتْ، فمْا تُسْطاعُ بالكَسْرِ[45]
فَلِذاك صِرتُ مع الشَّبيبةِ نَازلا
في غَيرِ مَنزِلَتي مِنَ العُمْرِ

ولعل ابن مقبل فيما مضى من دراسة لنماذج من شعره في الشيب يلتقي مع غيره من الشعراء المعمرين: «الذين أكل الدهر عليهم وشرب، وبدلهم من عِزِّهم ذلًا، ومن فتوتهم وشبابهم هرمًا وشيخوخة، ومن خروجهم للصيد وتصيد الفاتنات لزومًا للبيوت. ومن يرجع إلى أشعارهم يجد فيها تصويرًا رائعًا حيًا لحياتهم من سأم العيش والشكوى من الأهل، ورسم ما تغير من أعضاء أجسامهم، ونحول أعوادهم، واجترارهم ذكريات الشباب أيام كانوا يتفنَّنون بحمل السلاح والخروج للصيد»[46].

يتضح مما سلف أن الشاعر كان يَحنُّ إلى أيام الصبا في الجاهلية، بعد أن أصبح شيخًا لا حول له ولا قوة، فلم يجد وسيلة ليعزِّي بها نفسه إلا الالتفات إلى الماضي، ماضي حياته في الجاهلية، لكن الحنين والذكريات جاءت بأسلوب بكائي، إيمانًا منه بأن الماضي حافل بكل ما هو جميل بالنسبة إليه، وبكاء الماضي هنا هو بكاء البشرية كلها على ماضيها الجميل.

ويمكن الإشارة هنا إلى إجابة أبي علي مسكويه عن سؤال ساله أبو حيان التوحيدي في مسألة اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره، يَحنُّ حنين الإبل ويبكي بكاء المتململ، حيث ردَّ مسكويه بقوله: «ليس

يشتاق إلى الشباب والصبا إلا أحد رجلين: إمّا فاقد شهواته ولذّاته، التي سَوْرتُها وحِدَّتها وقت الشباب. وإمَّا فاقد صحته في السمع والبصر، أو بعض أعضائه التي قوَّتها وفورتها وقت الصبا وحين الحداثة »[47].

وابن مقبل يجمع الأمرين معًا، فهو قد فقد شهواته ولذّاته، وكذلك الأمر في صحته عندما أصبح فاقدًا للبصر أيضًا.

ثالثًا: المرأة - زوجة وحبيبة -

الموضوع الثالث الذي بكى من خلاله ابن مقبل ماضيه وتحسّر على زواله، المرأة زوجة وحبيبة، وقد شكّل هذا الأمر مظهرًا من مظاهر بكاء الماضي، ونخصُّ هنا زوجه دهماء التي اعتبرنا تفريق الإسلام بينهما أحد سببين كانا كفيلين بتفسير ظاهرة بكاء الماضي في شعر ابن مقبل، إذ كان عاشقًا ولهًا بهذه المرأة:«ومن يقرأ شعر ابن مقبل في دهماء يحسب أنه كان كلفًا بهذه المرأة حد العشق، وبقي هذا العشق حتى بعد أن فرَّق الإسلام بينهما، بل لعل ذلك التفريق أشعل أوار تعلق الشاعر بها أكثر من ذي قبل، فظل يذكرها، ويتحسر على عهدها في الجاهلية»[48].

ويمكن القول إن ابن مقبل كان يبكي الماضي من خلال بكائه على أيامه الفائتة مع دهماء، لهذا جاء ذكرها في الديوان ثلاثًا وعشرين مرة، كان حريصًا فيها على ذكر ماضيه معها وذكر الأماكن التي تعود به إلى ذاك الماضي السعيد، ومن ذلك قوله معلنًا أن الإسلام قد فرَّق بينهما[49]:

هَلْ عاشِقٌ نَال مِنْ دَهماء حَاجَتَهُ
بَيْضُ الأنُوقِ بِرَغْمٍ دُونَ مَسْكنِها
وطَفلةٍ غَيرِ جُبّاء، ولا نَصَفٍ
خَوْدٌ تَلَبَّسُ البَابُ الرّجالِ بِها

فامرأته دهماء تختلف عن باقي النساء، لأن مسكنها أبعد من بيض الأنوق، وما هذا إلا دلالة على أنه في حاضره لا يستطيع الوصول إليها ويجتمع بها في بيت الزوجية بعد أن حصلت المفارقة الشرعية، ثم نجده يستحضر صورتها السابقة في عهد الجاهلية، وعلى وجه الخصوص أيامه الأولى معها، فهي مُتفرِّدة في جمالها، وفي هذا تعبير عما يعتلج في نفسه من الم وتحسر على أيام الماضي، ومظهر بكائي من نوع خاص.

ثم يمضي الشاعر بتصوير تفرُّد دهماء عن غيرها من النساء [51]:

كَأنّها مَارِنُ العِرْنينِ مُفتَصَلٌ
مِنَ الظِّبَاء، عَليه الوَدْعُ مَنْظُومُ[52]
مُقَلَّدٌ قُضُبَ الرَّيحَانِ، ذو جُدَدٍ،
في جَوْزِه مِنْ نجَارِ الأدْمِ تَوْسِيمُ
ممّا تَبنّى عَذارَى الحَيِّ، آنَسَهُ
مَسْحُ الأكُفِّ وإلبَاسٌ وتَنْوِيمُ
مِنْ بَعْدِ مَا نَزَّ تُزْجيه مُرشّحَةٌ
أخلَى تِيَاسٌ عَليها فَالبراعِيمُ[53]
لا سَافِرُ اللّحْم مَدْخُولٌ ولاَ هَبِجٌ
كَاسِي العِظامِ لَطِيفُ الكَشْحِ مَهْضُو

يُبدي الشاعر في الأبيات السابقة إعجابه الشديد بدهماء، وهو في هذه اللحظة السعيدة يبكي كل ما له علاقة بها، فهو يشبهها بالغزاله على عادة الشعراء، لكن غزالته هنا مختلفة أيضًا، ومن نوع خاص، ويُعلِّق الدكتور عبد الله الفيفي على هذه الأبيات تعليقًا يروق

لوصف حال الشاعر البكّاء، إذ يقول: «فيصور الغزال كما يود أن يرى حبيبته طفلًا، مربّبًا، محبوبًا، عليه الودع منظوم، محفوفًا بما يليق به من رعاية خاصة على أكف العذارى، مثيلاته لطفًا وجمالًا. وكيف لا يختار لصاحبته هذا المثال وقد قيل: إن من العرب من قدّسوا الغزال؛ ومن هنا احتفى به احتفاء يشي بما وراءه، فجعله مُحلًّى بالودع، مقلدًا بالرياحين، بل قد تبنته عذار الحي يلبسنهُ وينمنه، فلا أحب منه يرى فيه معشوقته (دهماء) أهم امرأة في حياته، يزداد بها وجدًا، بعد تفريق الإسلام بينه وبينها، فيهيم في الذكريات الجاهلية»[54].

وعلى الرغم من شيب الكبرة عند ابن مقبل ودخوله في الإسلام -العهد الجديد- إلا أنّ قلبه لم ينصرف عن حب دهماء، ويُصرِّح بما هو خطير عندما يكشف في أبياته عن تاريخ حبه الطويل لهذه المرأة منذ أن كانت زوجة لأبيه، ويبدو في هذا الموقف كأنه من الشعراء الذين يتغزّلون بمحبوباتهم وهم في عنفوان شبابهم، وما هذا إلا انعكاس لما يعتلج في نفسه من مشاعر الحنين والشوق إلى أيام الجاهلية التي تُمثِّل ماضيه وجمعته بأجمل الأشياء التي امتلكها في ذلك العصر، يبدو هذا الموقف في قوله[55]:

هَلْ القَلبُ عَن دَهماءَ سَالٍ فَمُسمِحُ
وتَــارِكُــهُ مِــنْـهـا الخَـيــالُ المُــبـرِّحُ
وزَاجِــرُهُ الـيَـومَ المَشـيـبُ، فَقدْ بدا
بـرَأْسِــي شَـيْـبُ الـكَـبْرةِ المُتوَضِّـحُ
لَقد طَال ما أَخفَيْتُ حُبّك في الحَشَا
وفي القَلب، حتَّى كادَ بالقَلبِ يَجْرحُ
قَـدِيمًـا، ولم يَـعـلَـمْ بـذلـكَ عَـالمٌ
وَإن كـانَ مَـوثـوقًـا يَـودُّ ويَـنْـصـحُ
فَــرُدّي فُــؤادي أَو أَثـيـبـي ثَـوابَـهُ
فَقد يَمْلِكُ المَـرءُ الكَريمُ فَيُسْجِحُ

ثم يرسم الشاعر صورة جميلة لمحبوبته، يُضمنها مجموعة من الصفات المادية، فيصف صوتها، وفمها، وريقهاعلى عادة الشعراء الجاهليين، لكن هذه الصفات عند ابن مقبل لها دلالة معنوية واضحة، فهي لم تصدر عن رجل في شبابه وإنما في شيخوخته ، والمحبوبة غائبة فرَّق الإسلام بينهما، فضلًا عما ابُتلي به من عور، ولهذا فإنه يُركّز على الصفات التي تمثل انعكاسًا نفسيًا واضحًا، والعور هنا عاهة دائمة أُصيب بها الشاعر وقد مثُلت له في شيخوخته، ويأتي الحديث عنها للإفصاح عن رمز القوة والشباب مقابل الشيخوخة والهرم ، يقول الشاعر[56]:

سَبْـتكَ بِمَـأْشُــورِ الـثَّـنَـايـا كـأنَّـهُ
أَقَاحي غَـداة بَـاتَ بـالـدَّجْنِ يُنْضَحُ
لَـيــالِيَ دَهْــمَــاءُ الــفُــؤادِ كَـأَنَّـهـا
مَهاةٌ تَـرْعَى بالفُقَيَّينِ مُرْشِحُ[57]
تَـرعَـى جَـنَـابًـا طَـيِّـبًـا ثُـمَّ تَـنْـتَـحي
لأَعْـيَـطَ مِـنْ أَقْـرابـهِ المِـسْـكُ يَـنْـفحُ
ولَـوْ كَلَّمَتْ دَهْـمـاءُ أَخـرسَ كَاظمًا
لَـبَـيَّنَ بـالـتَّـكـليـمِ أَوْ كَـادَ يُـفـصِـحُ
سِرَاجُ الدُّجى يَشْفي السَّقيمَ كَلامُها
تُـبـلُّ بـهـا الـعَـيْنُ الـطَّـرِيـفُ فَتُنْجِحُ
كَـأَنَّ عَـلـى فـيـهَـا جَـنَـى رِيـقِ نَحلَةٍ
يُـبَــاكِـرهُ سَــارٍ مِــنَ الـثَّـلـجِ أَمْـلـحُ

وأجدني أميل إلى رأي الدكتور عبدالله الفيفي في تعليق له على الأبيات السابقة، إذ يقول: «وفي هذا

انعكاس لا شعوري للأثر الطبيعي الذي تركه العور على نفسية الشاعر، حتى رأى في صورة الحبيبة غاية المنى بأن تبلَّ العين مما أصابها»[58].

إن الصور السابقة في جمالها، والتي أضفاها الشاعر على محبوبته، إنما تدل على بكائه من الداخل وهو يتذكر صفات المحبوبة والزوجة، فالإنسان عندما يتذكر ماضيه الجميل يبدي تحسرًا على انقضائه، حتى يصل إلى مرحلة البكاء عليه، وهذا ما حصل مع ابن مقبل.

وفي موضع آخر تتضح صورة دهماء الأم والزوجة والأولاد، أي الأسرة بكاملها، وذلك عندما يُشبهها ببيضة النعامة، وهي من الصور التي الفناها للمرأة عند كثير من الشعراء الجاهليين، ولعل رمزية الصورة هنا تَنُمُّ عن اللاشعور عند الشاعر، ففي فقده لدهماء بعد دخوله في الإسلام فقدان للأسرة بكاملها؛ لأن في صورة النعام الذي يحرص على المحافظة على البيض، بحيث يتناوب الظليم مع الأنثى، صورة تُبيِّن معنى الأمومة، واللُّحمة الأسرية، وهذا الافتراض ينفي أن يكون تشبيه المرأة هنا ببيض النعام قد جاء للوصف المادي فقط، أي أن وجه المحبوبة يُشبه تلك البيضة في الملاسة والنضارة والبياض، تبدو هذه الصورة في قول الشاعر[59]:

لِدَهْماءَ إذْ للنَّاس والعيش غِرّةٌ
وَإذ خُلُقَانا بالصِّبَا يَسَرَانِ
تَشكَّتْ بِبَعضِ الطَّرف حتَّى فَهِمْتُهُ
حَيَاءً، وَمَا فَاهَتْ بِهِ الشَّفَتَانِ
كَبَيضَةِ أُدْحِيٍّ يُوحْوحُ فَوقَها
هِجفَّانِ مُرْتَاعا الضُّحَى وَحِدَانِ

أَحسَّا حَسِيسًا مِن سِبَاعٍ وطَائِفٍ
فَلَا وَخْدَ إلاَّ دُوْنَ مَا يَخِدَانِ
يَكَادانِ بَينَ الدَّونكَينِ وأَلْوَةٍ
وَذَاتِ القَتَادِ السُّمْرِ يَنْسَلِخَانِ[60]

ويُبَرِّرُ الشاعرُ في القصيدة ذاتها سبب إخفاء علاقته بها بعد أن فَرَّقَ الإسلامُ بينهما، وما هذا إلا لأن هناك رجالًا يخوضون في الحديث عن علاقته بدهماء، ولهذا هو لا يُصِّرح بعلاقته بها وإنما يُكنِّي عنها، وهذا الشوق والحنين محاولة منه في استرجاع الماضي بهذا النفس البكائي، وهو بذلك يسلك مسلك الشعراء في سعيه للوصول إلى المحبوبة على ظهر ناقته النجيبة، يقول[61]:

فَهَلْ يُبلِغَنِّي أَهْلَ دَهماءَ حُرَّةٌ
وَأَعيسُ نَضَّاحُ القَفا مَرِجانِ[62]
لَقد طَالَ عَن دَهماءَ لَدِّي وعِذْرَتي
وكِتْمانُها أَكْنِي بِأُمِّ فُلانِ
جَعلتُ لِجُهَّالِ الرِّجَالِ مَخَاضَةً
وَلَو شِئتُ قَد بَيَّنْتُهَا بِلِساني

ويبدو أن دهماء بالنسبة إلى الشاعر قد أخذت بعدًا أكبر من مجرد كونها زوجة، بمعنى أنها غدت رمزًا لكل ماضيه في الجاهلية، فهو في حنينه وشوقه لها يبكي الجاهلية بكل ما تحمله له من ذكريات، ولهذا لم تكن هذه المرأة تفارق خياله، يقول[63]:

زَارَ الخَيَالُ لِدَهْمَاءَ الرِّكَابَ وَقَدْ
نَامَ الخَلِيُّ بِبَطْنِ القَاعِ مِن أُسُنِ

وعلى الرغم من أنه يحاول أن يُسَلِّي نفسه بالنسيان، إلا أنه بقي متعلقًا بالذكريات لشدة ما كان بينهما من علاقة حميمة ووصل، فهو لن يرجع

عن المُضيِّ في تذكُّرها، لأنها - كما أسلفنا - أصبحت رمزًا لحياته الماضية في الجاهلية، يقول[64]:

إِنْ تَكُ دَهْمَاءُ قَدْ رثَّتْ حَبَائلُهَا
فَمَا تَعَلَّلْتُ مِنْ دَهْمَاءَ بِالغَبِنِ
وَلَوْ تَرَانِي وَإِيَّاهَا لَقُلتَ لَنَا
كَأَنَّ مَا كَانَ مِنْ دَهْمَاءَ لَمْ يَكُنِ
إِنْ تَكُ لِي حَاجَةٌ قَضَّيْتُ أَوَّلَهَا
فَهَذِهِ حَاجَةٌ أَجْرَرْتُهَا رَسَنِي

وهناك صورة أخرى لدهماء الزوجة والحبيبة عندما بَعُدت وفارقت، والمقصود بالمفارقة هنا ما حصل بينهما من تفريق بعد الإسلام، وهذه الصورة ذات أثر كبير في نفسية الشاعر، والتي تتمثل في صورة الديار التي خلت من المرأة في التي أحبَّها ، ويُلحظ أن حديثه عن دهماء يخرج عن الواقع عندما يجعلها من الجنّ، مع ملاحظة الأثر الفارسي في شعر ابن مقبل، ثم يأتي الشاعر بذكر جمال دهماء وحبه لها في كل أحواله جادًا ومازحًا، والمكان الذي يضمها هو أفضل الأماكن بالنسبة له، ولعل في هذا النموذج الذي سنذكره بناء على ما أسلفنا صورة واضحة لموقف الشاعر من المرأة الزوجة والحبيبة التي افتقدها بعد دخوله في الإسلام، وهو يأتي بذكرها على هذا النحو تحسرًا على ما مضى من أيام الجاهلية، يقول[65]:

دَعَتْنَا بِكَهْفٍ مِنْ كُنَابَينِ دَعوةً
عَلَى عَجَلٍ، دَهْمَاءُ وَالرَّكبُ رَائِحُ[66]
فَقُلْتُ وَقَدْ جَاوَزْنَ بَطْنَ خُمَاصَةٍ
جَرَتْ دُوْنَ دَهْمَاءَ الظِّبَاءُ البَوَارِحُ
أَتَى دُوْنَهَا ذَبُّ الرِّيادِ كَأَنَّهُ
فَتًى فَارِسِيٌّ فِي سَرَاوِيْلَ رَامِحُ[67]
وَمَا ذِكْرُهُ دَهْمَاءَ بَعْدَ مَزارِها
بِنَجْرَانَ إِلاَّ التُّرَّهَاتُ الصَّحاصِحُ[68]
عَفَا الدَّارَ مِنْ دَهْمَاءَ بَعْدَ إِقَامَةٍ
عَجَاجٌ بِجَنْبَيْ مَنْدَدٍ مُتَنَاوِحُ
فَصِخْدٌ فَشِسْعى مِنْ عُمَيْرَةَ فَاللِّوى
يَلُحْنَ كَمَا لاَحَ الوُشُومُ القَرَائِحُ
إِذَا النَّاسُ قَالُوا كَيْفَ أَنْتَ وَقَدْ بَدَا
ضَمِيرُ الَّذي بِي قُلْتُ لِلنَّاسِ صَالِحُ
لِيَرْضَى صَدِيْقٌ أَوْ لِيَبْلُغَ كَاشِحًا
وَمَا كُلُّ مَنْ سَلَفْتَهُ الوُدَّ نَاصِحُ
إِذَا قِيْلَ مَنْ دَهْمَاءُ خُبِّرْتُ أَنَّهَا
مِنَ الجِنِّ لَمْ يَقْدَحْ لَهَا الزَّندَ قَادِحُ[69]
وَكَيْفَ وَلاَ نَارٌ لِدَهْمَاءَ أُوْقِدَتْ
قَرِيبًا وَلاَ كَلْبٌ لِدَهْمَاءَ نَابِحُ
وَإِنِّي لَيَلْحَانِي عَلَى أَنْ أُحِبُّهَا
رِجَالٌ تُعَزِّيْهِمْ قُلُوْبٌ صَحَائِحُ
وَلَوْ كَانَ حُبِّي أُمَّ ذِي الوَدْعِ كُلُّهُ
لأَهْلِكَ مَالاً لَمْ تَسَعْهُ المَسَارِحُ
أَبَى الهَجرَ مِنْ دَهْمَاءَ وَالصَّرْمَ أَنَّنِي
مُجِدٌّ بِدَهْمَاءَ الحَدِيْثَ وَمَازِحُ
وَيَوْمًا عَلَى نَجْرَانَ وَافَتْ فَخِلْتُهَا
كَأَحْسَنِ مَا ضَمَّتْ إِلَيَّ الأَبَاطِحُ
بِمَشْيٍ كَهَزِّ الرُّمْحِ بَادٍ جَمَالُهُ
إِذَا جَدَفَ المَشْيَ القِصَارُ الدَّحادِحُ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ قَوْلَهَا إِذْ لَقِيْتُهَا
أَجِدِّي نَبَتْ عَنْكَ الخُطُوبُ الجَوارِحُ

ومن أسماء النساء اللائي وَرَدْنَ في شعر ابن مقبل الذي نظمه بعد الإسلام، والذي يَحِنُّ فيه إلى الماضي (كُبَيْشَة)، حيث ورد ذكرها في ديوانه اثنتي عشرة

مرة، ومعنى هذا أنها تأتي من حيث العاطفة القوية التي تربط بينهما بعد امرأته دهماء، وقد قيل إنها زوجته أيضًا[70]، لكنني أرى غير ذلك، أي أنه ليس من المعقول أن تكون هذه المرأة زوجة لابن مقبل، لأنه في نموذج من نماذجه الشعرية يصورها وقد رافقته إلى مجلس غناء ولهو ومجون، تصدح فيه المُغنيات، وترقص الراقصة التي ينظر إليها بإعجاب، وتشرب معه الخمر، يقول[71]:

لَيْتَ اللَّيَالِي يَا كُبَيْشَةُ لَمْ تَكُنْ
إِلاَّ كَلَيْلَتِنَا بِخَبْتِ طَحَالِ
فِي لَيْلَةٍ جَرَتِ النُّحُوسُ بِغَيْرِهَا
يَبْكِي عَلَى أَمْثَالِهَا أَمْثَالِي
بِتْنَا بِدَيِّرَةٍ يُضِيءُ وُجُوهَنَا
دَسَمُ السَّلِيطِ عَلَى فَتِيلِ ذُبَالِ
حَتَّى انْتَشَيْنَا عِنْدَ أَدْكَنَ مُتْرَعٍ
جَحْلٍ أُمِرَّ كُرَاعُهُ بِعِقَالِ[72]
مِمَّا تُعَتَّقُ فِي الدِّنَانِ كَأَنَّهَا
بِشَفَاهِ نَاطِلِهَا ذَبِيحُ غَزَالِ
وَغِنَاءِ مُسْمِعَةٍ جَرَرْتُ لِصَوْتِهَا
ثَوْبِي وَلَذَّةِ شَارِبٍ وَفِضَالِ
صَدَحَتْ لَنَا جَيْدَاءُ تَرْكُضُ سَاقُهَا
عِنْدَ الشُّرُوبِ مَجَامِعَ الخَلْخَالِ
فَضُلًا تُنَازِعُهَا المَحَابِضُ صَوْتَهَا
بِأَجَشَّ لا قَطِعٍ وَلا مِصْحَالِ
فَإِذَا وَذَلِكَ يَا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ
إِلاَّ كَحَلْمَةِ حَالِمٍ بِخَيَالِ

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر قد اتخذ من هذا المشهد وسيلة لبكاء ماضيه في الجاهلية، إذ إنه لا يستطيع حضور مثل هذه المجالس في حاضره بعد أن دخل في الإسلام وأصبح شيخًا طاعنًا في السّن ، ولذلك قال: ««يبكي على أمثالها أمثالي».

ولعل في مثل هذه النماذج ما يُعطي صورة لبكاء ابن مقبل للماضي، فالعلاقات بالنساء وبخاصة زوجه دهماء في الجاهلية كانت مُيَسَّرة ومباحة على عكس ما آلت إليه بعد أن دخل في الإسلام، وما حنينه لدهماء وغيرها من النساء اللائي وَرَدْنَ في قصائده التي نظمها بعد دخوله في الإسلام، إلا حنين لعهد الجاهلية الفائت، فالعلاقات مع النساء على نحو ما رأينا غير مُباحة في الإسلام، ولذلك فقد حُرِمَ مثل هذه المتع، بل إنه حُرِم من زوجه دهماء التي كانت تُشَكِّلُ منعطفًا مهمًا في حياته، ووفقًا لذلك جاء أسلوبه في حديثه عن النساء استجابة للحالة اللاشعورية، والتي تستحضر له الماضي بصورته الجميلة.

رابعًا: الطلل

وقف ابن مقبل كغيره من الشعراء على الأطلال، ووصف خرابها وعفاءها بعد أن رحل عنها أهلها ، ذلك التقليد والنهج الذي سار عليه معظم الشعراء الجاهليين، حرصًا منهم على الالتزام بالشكل الفني للقصيدة العربية، لكن ابن مقبل يختلف عن الشعراء الجاهليين في تلك القصائد التي قالها بعد أن دخل في العهد الإسلامي الجديد، إذ جاء الطلل وسيلة للحديث عن الماضي الذي يالم لفراقه ويتحسر على انقضائه، ووسيلة أخرى لتذكُّر إخوانه وصحبه.

أما بكاء الشاعر للماضي فقد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمرأة التي يَحنُّ إليها ويذكر أيامها معه، وبخاصة دهماء وكبيشة وليلى، كما أنه يُصَرِّحُ بالبكاء على عفاء الديار وفراق أهلها، ومن هنا يمكن القول إنه يبكي الماضي ويَحنُّ إليه ، والطلل بحد ذاته وسيلة تذكيرية للشاعر بعلاقاته مع المرأة، وبالأماكن التي كان يرتادها، وهذا كله يَحكي ذكريات الشاعر

الخاصة كما يصورها ماضيه.

ومما جاء في ذلك سؤاله عن أطلال محبوبته كُبيشة، إذ أصبحت الدار خالية من أهلها، ونراه يستخدم أسلوب الحوار معها بخصوص شؤون المال، ثم يستعرض واقع الإنسان في الحياة وتعبه من أجل العيش، ليصل في النهاية إلى ذم الحياة التي ليس فيها سوى الحزن والمُنَغِّصَات، ولعل في هذا الحديث دليلًا على بكاء الشاعر حاله البائسة التي يتمنى الموت للخلاص من واقعه وآلامه، يقول[73]:

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبَيْ حبرٍّ فَواهِبِ
إِلَى مَا رَأَى هَضْبَ القَلِيبِ المُضَيَّحُ[74]
أَقَامَ، وخلَّتْهُ كُبَيْشَةُ بَعْدَ مَا
أَطَالَ بِهِ مِنْهَا مَرَاحٌ وَمَسْرَحُ
وحَلَّتْ سُوَاجًا حلَّةً فَكَأَنَمَا
بِحَزْمِ سُوَاجٍ وَشْمُ كفٍّ مُقَرَّحُ[75]
تَقُوْلُ تَرَبَّحْ يَغْمُرِ المَالُ أَهْلَهُ
كُبَيْشَةُ والتَّقوى إِلَى اللهِ أَرْبَحُ
أَلَمْ تَعْلَمِيْ أَنْ لاَ يَذُمُّ فُجَاءَتِي
دَخِيْلِي إِذَا اغْبَرَّ العِضَاهُ المُجلَّحُ[76]
وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا
أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ
وَكِلْتَاهُمَا قَدْ خُطَّ لِي فِي صَحِيْفَتِي
فَلَلْعَيْشُ أَشْهَى لِي وَلَلْمَوْتُ أَرْوَحُ
إِذَا مِتُّ فانْعِيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ
وَذُمِّي الحَيَاةَ كُلُّ عَيْشٍ مُتَرَّحُ

وفي نموذج آخر يُعلن البكاء صراحة، وبكاؤه هنا لأن دار كُبَيْشَة قد ذكَّرته بما مضى، فَهَيَّجَت الذكريات دموعه، يقول[77]:

يَا دَارَ كَبْشَةَ تِلْكَ لَمْ تَتَغَيَّرِ
بِجُنُوبِ ذِي خَشُبٍ فَحَزْمِ عَصَنْصَرِ
فَجُنُوْبِ عَرْوَى فَالقَهَادِ غَشِيْتُهَا جِ
وَهْنًا فَهَيَّجَ لِي الدُّمُوْعَ تَذَكُّرِي[7]

وفي نص آخر يقف الشاعر على أطلال محبوبته دهماء دون أن يذكر اسمها صراحة، فيقول[79]:

أَلاَ قِفْ بِالْمَنَازِلِ وَالرُّبُوعِ
دِيَارُ الحَيِّ كَانَتْ لِلجَمِيْعِ
دِيَارٌ لِلَّتِي ذَهَبَتْ بِقَلْبِي
فَمَا يُرْجَى لِقَلْبِي مِنْ رُجُوْعِ

وقد يرتبط الطلل بحديث الشاعر عن المرأة التي تَعْجَب لكِبَرِه وَهَرَمِه، وشيب رأسه، ولكنه يواجه ذلك بالحنين إلى أيام الشباب، تلك الأيام المليئة بالحب والذكريات السعيدة، يقول[80]:

سَلِ المَنَازِلَ كَيْفَ صَرمُ الوَاصِلِ
أَمْ هَلْ تُبِينُ رُسُومُهَا لِلسَّائِلِ

إلى أن يقول:

مَاذا تَذكَّرُ مِنْ وِصَالٍ غَرِيبَةٍ
طَالَتْ إِقَامَتُهَا بِخَلِّ الحَائِلِ
لِفَتَاةِ جُعْفِيٍّ لَيَالِيَ تَجْتَنِي
ثَمَرَ القُلُوْبِ بِجِيْدِ آدَمَ خَاذِلِ
عَجِبَتْ لِيَ الجُعْفِيَّةُ ابْنَةُ مَالِكٍ
أَنْ شَابَ أَصْدَاغِي وَأَقْصَرَ بَاطِلِي
وَلَقَدْ تَحَيَّنَتِ الصِّبَا وَطِلاَبَهُ
لِتِبَاعَةِ المَتْبُوْلِ عِنْدَ التَّابِلِ

ويأتي بكاؤه الديار وأهلها أحيانًا دون ذكر المرأة، بل يذكر أيامه السالفة وذكرياته الماضية، متحسرًا على انقضاء عمره فيها، يقول[81]:

أَلَهْفِي عَلَى عِزٍّ عزيزٍ وظِهْرةٍ
وَظِلِّ شَبَابٍ كُنْتُ فِيْهِ فَأَدْبَرَا

وَلَهْفِي عَلَى حَيَّي حُنَيْف كلَيْهِمَا
إذَا الغَيْثُ أَمْسَى كَابِيَ الكَوْنِ أَغْبَرَا
يُذَكِّرُني حَيَّيْ حُنيْف كليهمَا
حَمَامٌ تَرَادَفْنَ الرَّكِيَّ المُعَوَّرَا
وَمالي لا أَبْكي الدِّيارَ وأهلَها
وَقَدْ حَلَّها رُوَّادُ عَكٍّ وَحِمْيَرَا

ونراه في موضع آخر من القصيدة ذاتها يعيش بفكره وروحه في الجاهلية على الرغم من عهده الجديد في الإسلام، فهو يُعلن أن العهد قد تغير، فأصبح الزمان غير الزمان، لذلك أصبح يشعر بالوحدة والوحشة، يقول(82):

أجِدِّي أرَى هَذَا الزَّمانَ تغيَّرا
وَبَطْنَ الرِّكاء مِنْ مَوَاليَّ أَقْفَرا
وَكَائِنْ تَرَى مِنْ مَنْهَلٍ بَادَ أَهْلُهُ
وَعِيدَ عَلَى مَعْرُوفِهِ فَتَنَكَّرَا
أَتَاهُ قَطَا الأَجْبَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَنَقَّرَ في أعْطَانِهِ ثُمَّ طَيَّرَا

ويُبكيه منظر الديار التي تُذكِّره بإخوانه الذين هجرهم بعد أن تقدم به العمر ودخل في عهد الإسلام، فهو يَبكيهم ويبكي فراقهم من خلال بكاء الديار، فقد مضى الزمان على من ذهبوا، ولهذا يُصَرِّحُ ببكائه؛ حيث يقول(83):

ذَرِ العَينَ تَسْفَحْ في الدِّيارِ فلاَ أَرَى التَّـ
ـعَزِّيَ يَشْفِيْهَا وَلاَ تَرْكَهَا الجَهْلا
وَلاَ يَسْتَطِيْعُ القَلْبُ لَوْ تَعْذُرَانِهِ
صُحُوًّا وَلاَ عَيْنِي بِعَبْرَتِهَا بُخْلا
مَرَتْهَا فَلَمْ تُسْبِلْ طَوِيْلاً وَلَمْ تَكَدْ
بِدِرَّةِ مَاءِ الشَّأنِ تَسْفَحُها ضَهْلا
تَذَكَّرْتُ إِخْوَانِيَ الَّذِيْنَ هَجَرْتُهُمْ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ شَكْلِي لَهُمْ مَرَّةً شَكْلا
هَجَرْتُهُمُ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ وَلاَ قِلىً
وَلَكِنَّ مَرَّ الدَّهْرِ كَانَ لَهُم شُغْلا

يتبين من النصوص التي ذكر فيها الشاعر الطلل والديار أنها جاءت في معظمها بكائية، يبكي من خلالها ماضيه الذي يذكره بالمنع والقوة والشباب، وهو الأمر الذي لاحظناه في حديثه عن المرأة – زوجة وحبيبة – أيضًا.

خامسًا: الخمر ومجالس الشراب:

ومن المواضع الأخرى التي بكى ابن مقبل من خلالها الماضي وتحسَّر على زواله، حديثه عن الخمر في مواضع متعددة من القصيدة، وقد جاء ممزوجًا ببكاء الماضي والحنين إلى أيامه الفائتة، بمعنى أننا في أكثر النماذج التي ذكر فيها الخمر نراه يختلف عن الشعراء الجاهليين الذين تحدَّثوا عنها في معرض حديثهم عن لهوهم ومجونهم، ومدى تأثيرها فيهم، فابن مقبل يذكرها حنينًا وشوقًا إلى ماضيه وشبابه وقوته، يقول (84):

بَلْ ما تَذكُر مِنْ كَأْسٍ شَرِبْتُ بِهَا
وَقَدْ عَلاَ الرَّأْسَ مِنْكَ الشَّيبُ والصَّلع

ويرتبط حديث ابن مقبل عن الخمر بعلاقته بزوجه دهماء، وهو بذلك يبكي ماضيه في الجاهلية الذي جمعه بزوجه دهماء، وكذلك معاقرته لكأس الخمر التي يصف أثرها ومجلسها، ويذكر راووقها، وما هذا التفصيل إلا دليل على تعلقه بالذكريات، فمجلسها حاضر في ذهنه، وهذا ما يَشُدُّه إلى بكاء الماضي، يقول(85):

عَانَقتُها فَانْثَنَتْ طَوْعَ العِنَاقِ كَمَا
مَالَتْ بِشَارِبِها صَهْبَاءُ خُرْطُومُ(86)

صِرْفٌ تَرَقْرَقُ فِي النَّاجُود نَاطِلُها
بالفُلْفل الجَون والرُّمَّانِ مَخْتُومُ
يَمُجُّهَا أَكْلَفُ الإِسْكَاب وَافِقَهُ
أَيْدِي الهبانيق بالمَثناة مَعْكُومُ[87]
كَأَنَّهَا مَارِنُ العِرْنَيْن مُفْتَصَلٌ
مِنَ الظّبَاءِ عَلَيْه الوَدْعُ مَنْظُوم

ويذكر الخمر في حديثه عن كُبَيْشَة مبديًا حنينه وبكاءه على أيامه معها في الجاهلية، حيث يُشَبِّهُ ريقة كُبَيْشَة بالخمرة ، فيقول[88]:

وَكَأَنَّها اغْتَبَقَتْ قَرِيحَ سَحابَة
بِعَرَى تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحُ زُلاَلِ
قُطِبتْ بأصْفَرَ مِنْ كَوافر فَارس
سَقَطَتْ سُلاَفَتُهُ مِنَ الجرْيَال[89]

ويذكر لياليه مع محبوبته ليلى أيضًا، ويَحِنّ إلى تلك الأيام التي شهدت نشوته ولذته، وقد شرب معها الخمر[90]:

لَيَالِيَ لَيْلَى عَلَى غَانِطٍ
وَلَيْلَى هَوَى النَّفْس مَا لَمْ تَبِنْ
سَقَتْني بِصَهْبَاءَ دِرْيَاقَة
مَتَى مَا تُلَيِّنْ عِظَامِي تَلِنْ
صُهَابيَّة مُتْرَع دَنُّهَا
تُرَجَّعُ مِنْ عُودٍ وَعَسٍ مُرِن

ويتغنّى ابن مقبل كذلك بذكرياته الماضية في الجاهلية وبصورة بكائية، تلك الذكريات التي تعود به إلى مجالس الشراب برفقة الندماء، وما هذا إلا حنين لتلك الأيام التي جمعته مع رفاقه في مجالس الشراب، وهي المجالس التي يفتقدها الآن في ظل الإسلام، وتقدم السن، والعور، يبدو هذا المشهد في قوله[91]:

وَفِتْيَانِ صِدْقٍ قَدْ رَفَعْتُ عَقيرَتي
لَهُمْ مَوْهِنًا والزِّقُّ رَيَّانُ مُجْبَحُ
وَضَمَّنْتُ أَرْسَانَ الجِيَاد مُعَبَّدًا
إِذَا مَا ضَرَبْنَا رَأْسَهُ لاَ يُرَنَّحُ

فالشاعر قد بكى ماضيه عن طريق استحضاره لذكرياته في مجالس الخمرة، سواء أكان ذلك مع المرأة أم مع ندمائه، بعد أن أصبحت هذه المجالس مُحَرَّمَة عليه بعد أن تقدمت به السن ودخل في الإسلام.

سادسًا: الدَّهر

من المواضع البكائية الأخرى التي بكى الشاعر من خلالها الماضي، حديثه عن الدهر، وقد جرى في ذلك على عادة الشعراء الجاهليين في نسبة المصائب والأحداث التي تعترض حياة الإنسان إلى الدهر، فهذه الفكرة الجاهلية ظلت ماثلة في شعر ابن مقبل، وفي شعر غيره على مَرِّ العصور[92]، ويمكن الإشارة إلى أن ابن مقبل قد وَظَّفَ فكرة الدهر في الحديث عن انقضاء أيامه في الجاهلية، ونسبة ما حل به وما نتج عن تقدمه في السن ودخوله في عهد الإسلام إلى الدهر، ومن ذلك قوله يتحدث عن الموت والحياة، وفلسفته لهذه المسألة[93]:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَان فَمِنْهُمَا
أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ

وَكِلْتَاهُمَا قَدْ خُطَّ لي فِي صَحِيفَتي
فَلَلْعَيْشُ أَشْهَى لي وَلَلْمَوْتُ أَرْوَحُ

وفي ردِّه على سُلَيْمَى ابنة عَصَر العقيلي التي استهزأت من هرمه وشيبه، يَرُدُّ ما حَلَّ به للدهر بأسلوب بكائي، حيث يَبكي ما فعله الدهر به، إذ يقول[94]:

إنْ يَنْقُضِ الدَّهْرُ منِّي مرَّةً لبلىً
فَالدَّهْرُ أَرْوَدُ بالأَقْوَامِ ذُو غِيَرِ
لَقَدْ قَضَيْتُ فَلاَ تَسْتَهْزِئَا سَفَهًا
مِمَّا تَقَمَّأْتُهُ مِنْ لَذَّةِ وَطَرِي

والدهر عند ابن مقبل سبب في تحوُّله من حال إلى حال مختلف عما كان عليه في الماضي، وهو سبب الفرقة بينه وبين قومه وناسه، لهذا يبكي أجداده وقومه، يبكي فيهم الشهامة والكرامة، والجود والزعامة، والقوة والشجاعة، وهذه الأمور تُمثِّل الماضي للشاعر، يبدو ذلك في قوله[95]:

أَبقَى خُطُوبٌ وَحَاجَاتٌ تُضَيِّقُني
مِثْلَ الحُسَامِ كَرِيمًا عِنْدَ خِلَّتِه
يَا لَيْتَ لِي سَلْوَةً يُشْفَى الفُؤَادُ بِهَا
أَوْ لَيْتَ أَنَّ النَّوَى قَبلَ البِلَى جَمَعَتْ
عَادَ الأَذِلَّةُ فِي دَارٍ، وَكَانَ بِهَا
يَا عَيْنِ بَكِّي حُنَيْفًا رَأْسَ حَيِّهِمُ
وَالحَامِلُ إِذَا مَا جَرَّ جَارِمُهُمْ
وَالضَّارِبِينَ بِأَيْدِيهِمْ إِذَا نَهَدَتْ
وَمَا جَنَى الدَّهْرُ مِنْ صَفْوٍ وَمِنْ كَدَرٍ
لِكُلِّ إِزْرَةَ هَذَا الدَّهْرِ ذَا إِزَرِ
مِنْ بَعْضِ مَا يَعْتَرِي قَلْبِي من الذِّكَرِ
شَعْبَيْ نَوَى مُصْعِدٍ مِنَّا وَمُنْحَدِرِ
هُرْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلاَّمُونَ لِلجُزُرِ
الكَاسِرِينَ القَنَا فِي عَوْرَةِ الدُّبُرِ[96]
بِحَامِلٍ غَيْرِ خَوَّارٍ ولا ضَجِرِ
مَثْنَى القِدَاحِ، وحُبَّتْ فَوْزَةُ الخَطَرِ

وكان الدهر سببًا في التفرقة بينه وبين دهماء، وسببًا في زوال أيام الصبا، فلم يترك له إلا الذكريات والحنين للماضي، وبكاء تلك الأيام الفائتة، يقول[97]:

أَبى القَلبُ إِلاّ ذِكرَ دَهماءَ بَعدَما
غَنِينَا وَأَضْحَى حَبْلُها قَدْ تَبَتَّرَا
وكنَّا اجْتَنَيْنَا مَرَّةً ثَمرَ الصِّبَا
فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُ الدَّهْرُ إلاَّ تَذَكَّرَا

وفي قصيدته التي يبكي فيها فراق زوجه دهماء، يُبدي قناعته بأن الإنسان مُعَرَّض لنوائب الدهر، وهي محاولة لتعزية النفس، وتخفيف حدَّة البكاء، واسترسال في الحنين إلى الماضي، وذلك إذ يقول[98]:

إنْ يَنْقُصِ الدَّهرُ منّي فَالفَتَى غَرَضٌ
لِلدَّهْرِ مِنْ عُودِه وَافٍ وَمَثْلُوْمُ
وَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ مِقْدَارًا أُصِبتُ بِه
فَسِيرةُ الدَّهرِ تَعْوِيْجٌ وَتَقْوِيمُ

ويبدو أن كل ما له علاقة بالفرقة عند ابن مقبل عائد إلى الدهر، حتى إن هذا الدهر قد فرَّق بين الطرق التي تربط بين الأماكن، يقول[99]:

قَدْ فرَّقَ الدَّهرُ بينَ الحَيّ بالظَّعَنِ
وَبَينُ أَرْجَاءِ شَرْجٍ يَوْمَ ذِي يَقَنِ[100]
تَفْرِيْقَ غيْرِ اجْتِمَاعٍ مَا مَشَى رَجُلٌ
كَمَا تَفَرَّقَ نَهْجُ الشَّامِ واليَمِ

ولعل فيما مضى ما يكشف عن شعورٍ صادق من الشاعر، يُترجم حنينه إلى الماضي والتحسر على انقضائه، وتذكر الأيام التي جمعته بزوجه دهماء، وأيام الصبا التي جمعته مع النساء، ومكَّنته من حضور مجالس الخمر واللهو التي لا يُحَرِّمُها الإسلام ، ولا يقف دون ولوجها حواجز؛ ولهذا بكى الماضي من خلال حديثه عن المرأة والطلل، والشيب والشباب، والخمر، والدهر، مستحضرًا الذكريات الجميلة التي سَّلى بها نفسه المقهورة، وخفَّف من حدَّة آلامه وحسرته، واسترسل في حنينه لماضيه الشاهد على قوته وشبابه وصحته.

الخلاصة:

يُعَدُّ ابن مقبل من الشعراء الفحول المجيدين، حيث جعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء الجاهليين، وقد أدرك ابن مقبل الإسلام ولم يرَ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وقيل: إنَّه عَمَّرَ طويلًا، فقد مات بعد أن بلغ مئة وعشرين سَنة، ولَمَّا كان ابن مقبل قد قضى شطرًا كبيرًا من عمره في الجاهلية، منغمسًا بملذاتها، فقد بقي مشدودًا إليها بعد أن دخل في الإسلام، حتى بدت آثار عصر الجاهلية ماثلة في شعره، وأكثر وضوحًا من آثار عصر الإسلام.

وفي ضوء دراسة الجزئيات السابقة ، تبيَّن للباحث أن الشاعر كان يبكي الماضي بشكل لافت، فأخذ يَحنُّ إلى حياته الماضية ومجالسها، ولهوها ومجونها، وخمرها ونسائها، فكان من الصعب عليه التحول الكامل عنها بعد دخوله في الإسلام.

وقد ارتبط بكاؤه للماضي بسببين هما:

أولًا: إن ابن مقبل كان شديد التعلُّق بحياته الأولى في الجاهلية وملذاتها، تلك الملذات التي لا يَحول بينه وبينها حَائل، وأيامه في الجاهلية شاهدة على صباه وشبابه، لكنه بعد أن دخل في الإسلام وتقدمت به السن وأصبح شيخًا كبيرًا، لم يعد أمامه سوى الذكريات والحنين إلى الماضي الغائب، فهو في الماضي شاب يافع يحضر مجالس الخمر واللهو، وله مغامراته مع النساء، لكنه في الإسلام أصبح شيخًا طاعنًا في السن ضريرًا، يُعاني من الهرم والعجز، وضعف الجسد وقلة الحيلة، وهذه الانتقالة سبَّبت له أزمة نفسية، لهذا بقيت أيام الماضي حاضرة في ذهنه، فأخذ يبكيها ويتحسر على انقضائها.

ثانيًا: أما السبب الآخر الذي دعاه إلى بكاء الماضي والتحسر على انقضائه في شعره، فيتعلق بزوجه (دهماء)، امرأة أبيه في الجاهلية التي خلف عليها بعد موته ، وقد كان شغوفًا بها، وعاشقًا متيمًا بحبها، ففرَّق الإسلام بينهما، لأن هذا النوع من الزواج مُحَرَّم في الإسلام، ولعل هذا السبب كفيل بأن يُبقي الشاعر على تعلق دائم بذكراها، يَحِنُّ إلى أيامه معها في الجاهلية، ومن خلال ذكرها في شعره بكى الماضي بكاء يذكِّره بكل ما مضى.

وفي ضوء ما سبق من دراسة لجزئيات هذا البحث، تبيَّن أن ابن مقبل قد بكى الماضي في شعره من خلال حديثه عن ثنائية الشباب والشيب، شبابه الجميل في الجاهلية، وهرمه وضعفه وعجزه في الإسلام، وبكى الماضي أيضًا عن طريق استحضاره لذكرياته مع النساء في الجاهلية بشكل عام، وزوجه دهماء، ومحبوبته كُبَيْشَة على وجه الخصوص، فبكى وتحسر على أيامه الفائتة معهما، والشيء نفسه نجده في بكاء الطلل والديار التي ذكَّرته بأهله وإخوانه.

وفي حديث الشاعر عن الخمر وتغنيه بمجالسها صورة بكائية أخرى، إذ إنه عند حديثه عنها بكى ماضيه الذي يذكره بشرب الخمر وحضور مجالسها.

كما تحدث الشاعر عن الدهر ومصائبه وأثره في التغيرات التي حصلت معه، فالدهر كان سببًا في شيخوخته وضعفه، وكذلك في ما حصل بينه وبين دهماء من فرقة، وهو في شكواه من الدهر بكى الماضي ، وتحسَّر على زواله.

ولعل في ما سلف ما يكشف عن شعور صادق، وأحاسيس مرهفة من الشاعر، وحنين مجبول بالالم والحرقة على أيام الجاهلية، وهذا جعل بعض القدماء يقولون عنه إنه كان جافيًا في الدين، يَبكي الجاهلية وَيَحنُّ إلى ماضيه.

الهوامش والإحالات

1) ابن سلام الجمحي، (ت 231هـ): طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت، ج1، ص142.
2) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم،(ت 276هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج1،ص455.
3) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (ت764هـ): الوافي بالوفيات، باعتناء جاكلين سوبلة وعلي عمارة، ط2، دار صادر، بيروت، 1991، ج10، ص416.
4) المصدر السابق، ج10/ 416.
5) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص288.
6) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص142، وانظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص455، وابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت 321هـ): الاشتقاق، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991، ص12.
7) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص455، وانظر: أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب، (ت مطلع القرن الرابع الهجري)، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، 1999، ج2، ص855، وابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (ت456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988، ج2، ص814.
8) ابن حجر العسقلاني، (ت 852هـ): الإصابة في تميز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، القاهرة، 1972، ج1، ص187، وانظر: البغدادي، عبدالقادر البغدادي، ت(1093م): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة دار الرفاعي، الرياض، 1984، ج1، ص113.
9) ابن مقبل، تميم بن أبي بن مقبل، (ت 70هـ): ديوانه، تحقيق، عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962، ص13، وانظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص455.
10) ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج1، ص187.
11) مقدمة ديوان ابن مقبل: ص12 – 13.
12) أبو حيان التوحيدي، (ت 414 هـ): الهوامل والشوامل، نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص37.
مقدمة ديوان ابن مقبل: ص12 – 13.
13) ماهر حسن فهمي: شعر الاغتراب في الأدب العربي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج25، 1965، ص137.

14) ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت 245هـ): كتاب المحبّر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح، إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص326.

15) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط3، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة، بيروت، 1980، ج5، ص534، وانظر في أنواع الزواج في المجتمع الجاهلي: ماهر المبيضين، الأسرة في الشعر الجاهلي، دراسة موضوعية، ط1، دار البشير، 2003، ص35 – 39.

16) سورة النساء (22).

17) شعر ابن مقبل، قلق الخضرمة بين الجاهلي والإسلامي، دراسة تحليلية نقدية عبدالله الفيفي، ط1، نادي جازان الأدبي، جازان، المملكة العربية السعودية، 1999، ج1، ص48.

18) المرجع السابق، ج1، ص48.

19) ابن مقبل: الديوان، ص267.

20) ابن مقبل: الديوان، ص267.

21) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص416.

22) البغدادي ، خزانة الأدب، ج1، ص113.

23) ماهر حسن فهمي: شعر الاغتراب في الأدب العربي، ص148.

24) ليد فوردح. بيسكوف: علم نفس الكبار، ترجمة دحام الكيال وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، 1984، ص355.

25) قيس النوري: الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا وواقعًا، مجلة عالم الفكر، م10، ع1(4، 5، 6)، 1979، ص17.

26) محمد الشوابكة: الغربة والاغتراب، دراسة في شعر ابن درّاج الأندلسي، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م4، ع2، 1989، ص147

27) هدى محمد قناوى: سيكولوجية المسنين، مركز التنمية البشرية والمعلومات، ط1، مصر، 1987، ص56.

28) أبو نصر المقدسي: اللطائف والظرائف، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1878، ص101.

29) عبدالله الفيفي، شعر ابن مقبل، ج2، ص487، وانظر: فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1991، ج2، ص242.

30) ابن مقبل: الديوان، ص1.

31) العِلافي: الرجل العظيم، منسوب إلى عِلاف وهو رجل من الأزد كان يضع الرحال، وضبَّره: أي ناقة ضبرة، وهي الوثابة، ووجناء: أي تامة الخلق.

32) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص455.

33) ابن مقبل: الديوان، ص72.

34) موسى ربابعة: التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م(5)، ع(1)، 1990، ص168.

35) ابن مقبل: الديوان، ص74 – 75.

36) المصدر السابق: ص76.

37) سرح: اسم موضع، واد أوماء، وسليمى هي إحدى ابنتي عصر العقيلي اللتين هزئتا بابن مقبل حين وقف عليهما واستسقاهما.

38) ابن مقبل: الديوان، ص133.

39) الناب: الناقة المسنة، والمكعبر: المقطوع.

40) ابن مقبل: الديوان، ص140.

41) المصدر السابق، ص171.

42) المصدر نفسه: ص266.

43) المصدر نفسه: ص364.

44) المصدر نفسه: ص367.

45) العصل: جمع الأعصل، وهو المعوج الشديد، يريد النواجذ. والموقَّحة: الصلبة.

46) حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في شعر الجاهلية، دار المعارف، القاهرة، ص101.

47) أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، ص38.

48) عبدالله الفيفي: شعر ابن مقبل، ج1، ص45.

49) ابن مقبل: الديوان، ص267.

50) الأنوق: الرّخمة، ورعم: اسم جبل في ديار بجبيلة، وطِلحام: موضع، ومركوم: أي بعضه فوق بعض متراكم.

51) ابن مقبل: الديوان، ص269.

52) المارن: ما لان من الأنف، وهو اللين هنا، ومارن العرنين: أي غزال مارن العرنين.

53) تِياس والبراعيبم: موضعان وكأنهما جبلان.

54) عبدالله الفيفي: شعر ابن مقبل، 2/680 – 681.

55) ابن مقبل: الديوان، ص48.

56) المصدر السابق، ص49.

57) الفُقّي: موضع، وهي نخل ومحارث لبني العنبر.

58) عبدالله الفيفي: شعر ابن مقبل، ج2، ص687.

59) ابن مقبل: الديوان، ص337، وانظر: ماهر المبيضين، الظليم ومواضع وروده في القصيدة الجاهلية، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، م11، ع4، 2005، ص403.

60) الدونكان: واديان في ديار بني سليم، والوة: اسم وادٍ أيضًا، والقتاد: شجر له شوك صلب، وذات القتاد: اسم موضع.

61) ابن مقبل: الديوان، ص343.

62) حُرَّة: أي ناقة حرة، وهي النجيبة الكريمة، والأعيس: البعير الأبيض يخالطه شقرة، ومرجان: الذي يضطرب في السير من سرعته.

63) ابن مقبل: الديوان، ص308.

64) المصدر السابق: ص311.

65) المصدر نفسه: ص40.

66) كهف: موضع، وكنابين: كناب جبل، وبإزائه جبل آخر يقال له عناب.

67) ذب الرياد: الثور الوحشي، الرامح: أي ذو رمح، شبَّه الثور الوحشي بالفارسِي ذي السراويل للسواد الذي في قوائمه.

68) التُّرهات: جمع التُّرهة، وهي الباطل، فَارِسيّ مُعَرَّب، وأصله الطريق الصغير المتشعب من الجَادَّة، والتُّرهات الصحاصح: الأباطيل التي لا أصل لها.

69) أي لم يقدح أحد من الناس زندًا يستوقد نارًا لدهماء، لأنها من الجِن، وكأن الجن لا يستوقدون نيرانًا، إذا لم يكن حاجة إليها.

70) عبدالله الفيفي: شعر ابن مقبل، ص49.

71) ابن مقبل: الديوان، ص257.

72) الجحل: الزق العظيم الضخم، وكراعه: يعني به رجله، والعقال: الحبل الذي يُعقل به.

73) ابن مقبل: الديوان، ص22.

74) حبر وواهب: جبلان في ديار بني سليم، وهضب القليب: موضع لبني قنفد من بني سُليم.

75) سواج: اسم جبل، والحزم: ما غلظ من الأرض وكثرت مجارته وأشرف حتى صار له إقبال.

76) العضاه: كل شجر يُعظم وله شوك كالطلح والسِّدر. والمجلَّح: الذي أكلته الإبل حتى ذهبت بغصونه.

77) ابن مقبل: الديوان، ص123.

78) عَرْوى: هضبة بالعالية، متاخمة بلاد اليمن، والقهاد: موضع.

79) ابن مقبل: الديوان، ص159، وانظر: ديوانه: ص255.

80) ابن مقبل، الديوان: ص216 – 219.

81) المصدر نفسه: ص140.

82) المصدر نفسه: ص132.

83) المصدر نفسه: 202.

84) المصدر نفسه: ص171.

85) المصدر نفسه: ص268.

86) الصهباء: الخمر التي يضرب لونها إلى البياض، تصنع من عنب أبيض، والخرطوم: الخمر السريعة الإسكار.

87) أكلف الإسكاب: أي زِقّ، والأكلف: الأحمر الذي يخلط حمرته سَواد خفي غير خالص، والإسكاب: قطعة من خشب تدخل في خرق زِق الخمر، والهبانيق: الوصفاء، ومعكوم: أي مشدود بالرباط.

88) ابن مقبل: الديوان، ص260.

89) الكوافر: دِنَان الخمر، والجريال: الخمر.

90) ابن مقبل: الديوان، ص296.

91) المصدر السابق: ص37.

92) عبدالله الفيفي: شعر ابن مقبل، ج1، ص122.

93) ابن مقبل: الديوان، ص24 – 25.

94) المصدر نفسه: ص77.

95) المصدر نفسه: ص80.

96) حُنيف: قبيلة من قيس، وهو أحد جدود ابن مقبل، وهو حنيف بن قتيبة بن العجلان بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة، والعورة: مكامن القوم وما أُتيح للعدو منهم.

97) ابن مقبل: الديوان، ص142.

98) المصدر السابق: ص272.

99) المصدر نفسه: ص301.

100) شَرج: ماء لبني أسد، وذو يقن: موضع.